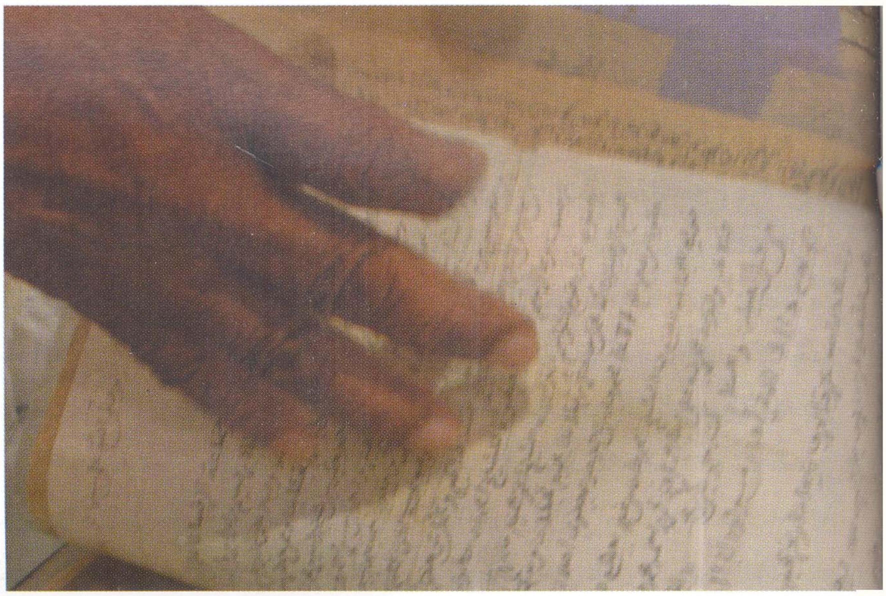
علم المخطوطات أو الكوديكولوجيا



ليندة شقرة

حديثنا ودراستنا للمخطوطات الإسلامية يندرج ضمن موضوع التحقيق العلمي للتراث العربي الإسلامي وعلاقته بعلم المخطوطات فقد نعتمد في هذه العملية على نسخة أو نسخ متعددة من المخطوط الواحد لتصل إلى النسخة الأصلية أو إلى صورة قريبة منها إلا أن عملية التحقيق والطرق المتبعة سابقا وحاليا، ليس من شأنها أن تفضي إلى ما نتوخاه من هذه العملية كنتائج. ويرجع السبب في ذلك أساسا إلى أن النسخ المعتمدة.



في عملية التحقيق لم تخضع للبحث الفيلولوجي الدقيق كما أنها لم تطبق في دراستها قواعد وأساليب علم المخطوطات الحديث أو ما يعرف بالكوديكولوجيا.

إن دراسة المخطوط الإسلامي على ضوء معطيات علم المخطوطات الحديث آو الكوديكولوجيا لا يزال موضوعا جديدا لدينا ولم يحض باهتمام معهد أو جامعة فعلى الرغم من عدم عناية القدماء بهذا الجانب باستثناء بعض الإشارات العارضة - فإن المحدثين من الفيلولوجيين وجلهم من الأوربين أمثال بادرسون، توماس أرلوند، قرمان، موريتز، وبعض المشارقة أمثال المنجد والحلوجي، هؤلاء جميعا لم يستطيعوا أن يسدوا هذا الفراغ وأن يكملوا ذلك النقص.

من هنا نلمس أهمية هذا العلم الذي يتناول بشيء من التفصيل دراسة المخطوط الإسلامي كقطعة مادية مما يمكن الباحثين من اكتشاف جانب من تاريخ الحضارة الإسلامية العريق.

إن الكوديكولوجيا تهدف من خلال دراسة المخطوطات إلى شيئين:

أولهما: دراسة كل أثر للكتابة في المخطوط باستثناء المتن أو النص بالتعبير المعاصر. أي يبحث في مصادر وتاريخ المخطوطات وفي الوقفيات والتمليكات والحواشي والتفسيرات والإضافات وكل ما من شأنه يساعد للتعريف بالمخطوط وبصاحبه وتاريخه وبمن تملكه أو قرأه أو نسخة، وبكل ماله علاقة بالمحيط التاريخي والجغرافي للمخطوط.

ثانيهما: البحث في العناصر المادية للمخطوط أي كل ماهو خارج عن النص ونقصد بهذا الوعاء وطريقة صناعته، وتركيبه، كالبحث في نوع الجلد والورق وغيرها من الجوانب المادية والتقنية التي درسها علماء

الفيلولوجيا بالنسبة للمخطوط الغربي وحتى بالنسبة للمخطوط والتقنية التي درسها علماء الفيلولوجيا بالنسبة للمخطوط الغربي وحتى بالنسبة للمخطوط العبري. في حين بقي المخطوط العربي يفتقر إلى مثل هذا النوع من البحث والدراسة ينتظر من المهتمين بشؤون التراث من ينفض عنه الغبار لا للاهتمام والاستفادة من متنه ومحتواه العلمي فقد ولكن لدراسة كقطعة مادية بصرف النظر عن موضوعية ومادته العلمية. إن مثل هذه الدراسات وغيرها مازالت تنتظر من العلماء الكثير من المعاناة والمثابرة والصبر المتواصل في البحث.

وإن الغاية من دراسة المخطوط دراسة كوديكولوجية هي خدمة النص الذي نحققه ونستخلص منه النظريات والأحكام. ومن خلال هذا العرض الوجيز لن نتناول من العناصر المكونة لهذا العلم إلا عنصرا نعتبره أكثر ارتباطا من غيره بعملية التحقيق العلمي ألا هو:

أثر النساخة والنساخ في المخطوط الإسلامي عبر تاريخه الطويل وهي مختلف الأماكن والبلدات التي تناقلت ممارسة هذه الحرفة.

أثر النساخة والنساخ في المخطوط الإسلامي:

أحدث تناقل المخطوطات ونسخها عبر العصور الكثير من الإضافات والحذف والتغيير والتبديل مما شوه النصوص أحيانا وغيرها تغييرا كاملا أحيانا أخرى، الشيء الذي جعل من علم المخطوطات أداة أساسية لتاريخ النصوص ومرحلة هامة في عملية نقدها خاصة عندما شعر العلماء بأن النصوص القديمة والتي يقرؤونها ليست هي النصوص التي تركها مؤلفوها.

إن مشاكل النساخة والنساخ المتباينة على ظهور المخطوطات، على غرار إجازات الرواية و السماع، و كذا وجود عبارات في الوقفيات من شأنها أن تمنع نسخ المخطوط وتحميه وهي بذلك تشكل دليلا وشاهدا حيا على الاحتياطات التي إتخذها القدامى إزاء النساخ ونفس هذه الاحتياط دفعهم إلى ظاهرة الاستطراد التي نلاحظها في النصوص القديمة حيث كانوا يكتبون كل شيء في المتن لأن الحواشي تكون غالبا عرضة للحذف من قبل النساخ أو عرضة للإقحام مما يحدث اضطرابا في نص المخطوط وهذا إبتداء من القرن الثامن الهجري حيث شعر الناس بالحاجة إلى الحواشي والهوامش فكانوا يميزون هذه الإضافة والاستطراد بقولهم تنبيه - فائدة - تعليق - حاشية (1)

إن البحوث النظرية لا تقدم نتائج ملموسة في هذا المجال ومن هنا نلمس الحاجة لوجود عالم بالمخطوطات المتعود على التعامل معها والمتمرن على دراستها كالتفتيش عنها والبحث في مصادرها الأصلية والبحث في أدوات الكتابة والأدوات المكتوب عليها من خلال التحليل الفيزيائي والكيمائي للوعاء والمداد، ودراسة علامة الكاغظ أو ما يعرف بالفيليغران ويعبر عنها بالبتريوغرافيا Betaradiographie وHolographie لمقارنة الخطوط وكذا دراسة خطوطها وتاريخ ما لم يؤرخ منها ثم وضع قوائم بالنساخ على غرار تلكم التي وضعت بالنسبة لنساخ المخطوطات الإغريقية واللاتينية التي تفصل القول في كل ناسخ وفي كل ما نسخه من مخطوطات ثم البحث في حياة النساخ وسلوكهم وإخضاعهم حسب الإمكان لما يسمى عند المحدثين بنظرية الجرح والتعديل للتأكد مما ينسخون وإننا نرجح بأهمية هذه العملية ونؤكد على ضرورة القيام بها علميا قبل الاهتمام بعملية التحقيق العلمي ولكننا نأسف لافتقار تراثنا العربي لمثل هذه الدراسات والبحوث.

وفي هذا الصدد يرد قول القاضي عياض في كتابة الإلماع على معرفة أصول الرواية وتقييد السماع حيث يقول المؤلف عن عملية النسخ فليقابل نسخته من الأصل بنفسه حرفا حرفا حتى يكون على ثقة ويقين من معارضتها أو مطابقتها ولا ينخدع في الاعتماد على نسخ الثقة العارف دون مقابلة نعم ولا نسخ نفسه بيده ما لم يقابل ويصحح، فإن الفكر يذهب، والقلب يسهو، والنظر يرزيغ والقلم يطغى

إن هذا الحديث يجعلنا عن قرب من أهمية المقابلة حرفا حرفا. كما أنه يوحي لنا بأن المعاينة طريقة كانت شائعة في النساخة العربية بالإضافة إلى المشافهة حيث يقوم الشيخ بعملية الإملاء في حين يكتب عنه الناسخ.

وفي نفس الصدد فقد دعا العلامة الفيلولوجي دي روسو Desrousseux والمنشغلين بهذا العلم إلى ضرورة الانتباه في تحليل عملية النسخ سيكولوجيا إلى أربع عمليات في فعل الناسخ المعاين والتي تحدث في نفس الوقت مما توقع ممارستها في الخطأ وهي:

1 - **قراءة النص**

2 - **حفظ النص**

3- **الإملاء الداخلي**

4 - **تنفيذ عملية الكتابة**(3)

إن تفاعل هذه العمليات في نفس الوقت يعلل وبوضوح الحالة السيكولوجية لعمل الناسخ و التي توقعه في الخطأ كما يؤكد المؤلف أن معظم الأخطاء تحدث أثناء المرحلة الثالثة - الإملاء الداخلي - بالإضافة إلى هذا نجد أن الأبحاث الحديثة توصلت إلى أن القارئ يعتمد في قراءته على جزء واحد من الكلمة في حين يستخدم حدسه وتخمينه لقراءة الجزء الآخر من نفس الكلمة ويأكد القاضي عياض بقوله: ولا ينخدع في الاعتماد على نسخ الثقة العارفً أي بمعنى أن الناسخ ذو النية السليمة لا يسلم من الوقوع في الخطأ و مهما بلغ حرصه فإنه يخطئ و بحرف بدون قصد.

هناك نقطة هامة أيضا قلما ينتبه إليها العلماء و المتمثلة في تاريخ النسخ فقد أثبت التاريخ والعمل الميداني أن الكثير من المخطوطات لا تحمل تاريخا إلا أنها محفوظة في خزانات علمية بتواريخ مثبتة على ظهورها. وكم من مخطوط مؤرخ تاريخا قديما وهو منسوخ حديثا لهذا يجب الاحتياط كيفما كانت طبيعة النسخة ومصدرها. حتى أنه لا يمكن أن نميز بينهما.

ففي مثل هذه الحالات يصبح البحث في العناصر الباليوغرافية والكوديكولوجية للمخطوط أمرا ضروريا حيث تتناول بشيء من التحليل والتدقيق تأريخ الخط أو الورق وغيرها من العناصر المادية المكونة له واكتشاف الأسباب التي دعت الناسخ إلى الوقوع في هذه الأخطاء. وذلك بالإعتماد على النسخ الخطية التي نجت من التصويب والإصلاح واحتفظت بالأخطاء والتي بواسطتها يتمكن مؤرخ النصوص من الوصول الى مصادر الأخطاء ومن تم أصبح من الضروري تغيير النظرة التقليدية التي حظيت بها النسخة الجيدة وتلقيبها بالنسخة الجيدة وإذا بحثنا في معنى النسخة الجيدة في المعجم الفيلولوجي فإننا نتحدث عن النسخة التي احتفظت بالأخطاء وليس تلكم التي تم تصحيحها.

إن هذه الدراسة تهدف إلى تحسيس المهتمين بشؤون المخطوطات وكل الذين لهم غيرة على هذا التراث بأن المخطوطات الإسلامية وتأريخها لازالت حقلا بكرا. وأن البحث في عناصر الكوديكولوجيا يمثل المرحلة الأساسية في عملية نقد النصوص. كما أصبح من الضروري إنشاء معاهد لدراسة وتدريس علم المخطوطات أن الكوديكولوجيا وكذا تكوين مختصين في هذا العلم يكونون قادرين على الاهتمام والعناية به. وإن هذه البحوث والدراسات العلمية والتقنية ستقيد المهتمين بالتحقيق وكما يمكنها أن تعطي صورة جديدة للنصوص المخطوطة والتي اعتمدت حتى الآن على استخلاص النتائج وإصدار الأحكام دون التعمق والبحث في الدوافع المتسببة في هذا الخلل أو محاولة تعليلها بأسباب منطقية وتاريخية محضة وأملنا أن تكون من هؤلاء حتى نخرج تراثنا من الأقبية في شكل يتناسب مع تطلعات الباحثين.

(1) – فرانز روزنتال . مناهج العلماء المسلمين . ط1.1980.ص 111.

(2) – الإلماع : القاضي عياض ص 159.

(3) –Alphonse, Dain manuscrits.ed.les belle lettres. p41.

